

القسم الثاني :

منهجنا في درس تاريخ الفلسفة الإسلامية

obeikandi.com

الفقه الإسلامي الأول

بداية التفكير الفلسفي الإسلامي

من أجل هذا رأينا أن البحث في تاريخ الفلسفة الإسلامية يكون أدنى إلى المسلك الطبيعي، وأهدى إلى الغاية حين نبدأ باستكشاف الجرائم الأولى للنظر العقلي الإسلامي في سلامتها وخلوصها، ثم نساير خطاها في أدوارها المختلفة، من قبل أن تدخل في نطاق البحث العلمي، ومن بعد أن صارت تفكيراً فلسفياً.

وجرياً على هذه الخطة نشرع في البحث عن بداية التفكير الفلسفي عند المسلمين.

١- والبحث في بداية التفكير الفلسفي الإسلامي يستدعي إمامة بحال الفكر العربي واتجاهاته حين ظهر الإسلام.

العرب عند ظهور الإسلام:

ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدي، فإنهم لم يكونوا في سذاجة الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية التي تهمنا؛ يدل على ذلك ما عرف من آديانهم، وما روى من آثارهم الأدبية.

الدين والجدل الديني:

٢- جاء الإسلام والعرب في تشعب ديني وبوادر انبعاث إلى نهضة دينية، والقرآن هو أصدق مرجع في تصوير حالة العرب من هذه الناحية، فإن القرآن هو أقدم ما نعرفه من الكتب العربية، وهو بما لقي من العناية بحفظه على مر العصور أجدر المراجع بالثقة. وقد جمع القرآن الأديان التي كان للعرب اتصال بها في عهده في الآية ١٧ من السورة ٢٢، الحج مدنية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ

هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾.

كان في العرب يهود ونصارى، وكان فيهم صابئة ومجوس، ثم كان فيهم
مشركون، ومذهب الصابئة - على ما يحيط بتاريخه من غموض - يكاد يتم
الاتفاق على أنه يُقَرَّبُ بالألوهية، ويرى أنا نحتاج في معرفة الله ومعرفة أوامره
وأحكامه إلى متوسط، لكن ذلك المتوسط يكون روحانيا لا جسمانيا، ففزعوا
إلى هياكل الأرواح، وهي الكواكب، فهم عبدة الكواكب.
أما المجوس، فهم ثنوية: أثبتوا للعالم أصليين اثنين مدبرين يقتسمان الخير
والشر، يسمون أحدهما النور، والآخر الظلمة.

وأما المشركون، فهم طوائف مختلفة: فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث
والإعادة وقالوا بالطبع المحيي والدمر الممضي؛ وهم الذين أخبر عنهم القرآن في
قوله: ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَمْعُودِينَ ﴾ (٢)، وقوله: ﴿ وَقَالُوا مَا
هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ ﴾ (٣).

وصنف أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم وأنكر البعث والإعادة، وهم
الذين أخبر عنهم القرآن في قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي
العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٤﴾.

ومنهم من أقروا بالخالق، وأثبتوا حدوث العالم وابتداء الخلق، وأقروا بنوع
من الإعادة، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام، ورعموا أنهم شفعاؤهم عند الله
في الآخرة، وحجوا إليها وقربوا القرابين، وهم الدهماء من العرب، وهم الذين
حكى الله قولهم في آية: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٥).

(٢) الآية: ٢٩ من سورة الأنعام.

(٤) الآيتان: ٧٨، ٧٩ من سورة يس.

(١) الآية: ١٧ من سورة الحج.

(٣) الآية: ٢٤ من سورة الجاثية.

(٥) الآية: ٣ من سورة الزمر.

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة أو الجن لتشفع لهم إلى الله
 ويزعمون أنهم بنات الله، وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ
 لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (١) وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ
 الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبَّ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ (٢).

وكان بين هذه الأديان والنحل جدال ونزاع. قال الشافعي في «الأم»: «فكانت
 المجوس يدينون غير دين أهل الأوثان ويخالفون أهل الكتاب من اليهود
 والنصارى في بعض دينهم، وكان أهل الكتاب اليهود والنصارى يختلفون في
 بعض دينهم» (٣)، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في مثل قوله: ﴿وَقَالَتِ
 الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ
 الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا
 فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
 الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ (٥) وقوله:
 ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (٧).

(١) الآية: ٥٧ من سورة النحل. (٢) الآية: ١٩ من سورة الزخرف. (٣) ج ٤ ص ٩٦.
 (٤) الآية: ١١٣ من سورة البقرة. (٥) الآية: ٣٠ من سورة التوبة.

(٦) في كتاب «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني: «جبت - قال الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٥١) الجبت والجبس: الفسل الذي لا خير فيه،
 وقيل التاء بدل من السين تنيهاً على مبالغته في الفسولة كقول الشاعر عمرو بن يربوع:
 شرار النات، أى خسار الناس، ويقال لكل ما عبد من دون الله جبت، وسمى الساحر
 والكاهن جبياً، وفي الكتاب نفسه في مادة طغى: «والطاغوت عبارة عن كل متعد وكل
 معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع قال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾
 (البقرة: ٢٥٦) و ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (الزمر: ١٧) و ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾
 (البقرة: ٢٥٧) و ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٦٠) فعبارة عن كل
 متعد. ولما تقدم سمي الساحر والكاهن والمارد من الجن، والصارف عن طريق الخير
 طاغوتاً؛ ووزنه فيما قيل فَعَلُوتٌ نحو جبروت وملكوت. وقيل أصله طغوت، ولكن
 قلب لام الفعل نحو صاعقة وصاعقة ثم قلب الواو ألفاً لتحركة وانفتاح ما قبله.
 (٧) الآية: ٥١ من سورة النساء.

وكان هذا الجدل يتناول بالضرورة شؤون الألوهية والرسالة والبعث والآخرة والملائكة والجن والأرواح، ويدعو إلى الموازنة بين المذاهب المختلفة في تلك الشؤون، وقوى أمر هذا الجدل الدينى فى ذلك العهد، حتى تولدت نزعة ترمى إلى تلمس دين إبراهيم أبى العرب.

ذكر ابن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨هـ (٨٣٣م) فى سيرته:

«دين العرب: قال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدبرون به، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض، قالوا: أجل، وهم: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نُفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شىء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نُظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! يا قوم! التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شىء. ففرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. فأما ورقة ابن نوفل فاستحکم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب. وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم... قال ابن إسحاق: وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتتصر وحسنت منزلته عنده. قال ابن إسحاق: وأما زيد بن عمرو بن نُفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءوءة، وقال: أعبد رب إبراهيم؛ وبأدى قومه بغيب ما هم عليه»^(١).

وذكر المسعودى المتوفى بالفسطاط سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧م) فى «مروج الذهب» أسماء أناس من العرب دعوا قومهم إلى الله ونبهوهم على آياته فى زمن الفترة، كقُس بن ساعدة الإيادى، ورباب السبتي وبِحيرا الراهب، وكانا من عبد القيس.

(١) «سيرة» ابن هشام ج ١.

كل ذلك يدل على أن العرب عند ظهور الإسلام كانوا يتشبهون بأنواع من النظر العقلي يشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية، لاتصالها بما وراء الطبيعة من الألوهية وقدم العالم أو حدوثه، والأرواح والملائكة والجن والبعث ونحو ذلك.

التفكير العملي:

٤- وقد كان عند العرب نوع آخر من التفكير عملي^٤ دعت إليه حاجة الجماعة البشرية، لا يتصل بما كان يتنازعهم من مختلف العقائد والنحل. قال صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠ - ٧١م) في كتابه «طبقات الأمم» بعد أن ذكر معرفة العرب لأحكام لغتها ونظم الأشعار وتأليف الخطب وعلم السير:

«وكان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة، لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرج في العلوم»^(١).

وكان عند العرب طائفة مميّزة يسمونهم حكماءهم، جمع حكيم؛ ويسمونهم حكاماً أيضاً جمع حاكم أو حَكَم، ومن أمثالهم «في بيته يؤتى الحكم» وهم علماءهم الذين كانوا يحكمون بينهم إذا تنافروا في الفضل والحسب، وغير ذلك من الأمور التي كانت تقع بينهم^(٢).

(١) طبقات الأمم، طبعة بيروت، ص ٤٥.

(٢) في كتاب «بلوغ الأرب في أحوال العرب» للسيد محمود شكرى الألوسى: «كانت العرب في الجاهلية إذا تنازع الرجلان منهم في الشرف تنافرا إلى حكمائهم - وسندكرهم إن شاء الله قريبا - فيفضلون الأشراف. ونافر، معناه حاكم في النسب، وسميت منافرة لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة: أنا أعز نقرأ. وقد ألف أبو عبيدة وغيره من الأئمة البارعين في اللغة كتباً في منافرات العرب» ج ١ ص ٣١١ - ١٢. وذكر الألوسى من المنافرات الشهيرة التي وقعت بين العرب في الجاهلية:

١ - منافرة عامر بن الطفيل مع علقمة، وقد جعلنا منافرتهما إلى أبي سفيان بن حرب ابن أمية، ثم إلى أبي جهل بن هشام، فلم يقلوا بينهما شيئاً، ثم رجعا إلى هرم بن قطبة بن سنان فحكم بينهما.

٢- منافرة بنى فزارة وبنى هلال، وقد تنافروا إلى أنس بن مدرك.

ومن حكماء العرب أبطاؤهم لما كان لهم من العلم والتجربة ونفوذ الكلمة . وكان لهؤلاء المفكرين أمثال تجرى على ألسنتهم شعراً أو نثراً، حكماً بالغته من ثمار الاختبار والعقل الراجح . وكانت هذه الأمثال عند العرب تراثاً علمياً ثميناً، يتنافسون في الاحتفاظ به . وقد وجهت العناية إلى جمع هذه الأمثال وتدوينها منذ عهد يزيد الأول المتوفى سنة ٦٤هـ (٦٨٣ - ٨٤م) ذخيرة أدبية، ثم عنى بها بعد ذلك الفلاسفة^(١) .

وتسمى هذه الأمثال حكمة وحكماً، وفي الحديث: «إن من الشعر لحكماً» أى كلاماً نافعاً، يمنع من الجهل والسفه، وينهى عنهما، ويروى: «إن من الشعر لحكمة» وهو بمعنى الحكم، كما فى «لسان العرب» .

الحكمة:

ومهما اختلفت العبارات فى بيان معنى «الحكمة» فى لسان العرب، فقد يوشك أن يتفق اللغويون على أن عناصر الحكمة هى إتقان فى العلم والعمل يمتنع معه الزيف والفساد والجور، أو هى العلم الكامل النافع . وفى «كشف البزدوى»: «والحكمة، لغة، اسم للعلم المتقن والعمل به . ألا ترى أن ضده السفه، وهو العمل على خلاف موجب العقل؛ وضد العلم الجهل»^(٢) .

«والحكم لا يختلف عن الحكمة اختلافاً كبيراً .

فالحكيم هو العاقل الخبير الماهر، وهو المعنى العبرى، وقبل ذلك الأرامى للفظ hkm؛ ومن هذا المعنى الأصلي جاء فى الاستعمال عند العرب لفظ حاكم بمعنى قاض ووال، ولفظ حكيم بمعنى طيب»^(٣) .

= ٣ - منافرة جرير البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي إلى الاقرع بن حابس .

٤ - منافرة القعقاع بن زرارة وخالد بن مالك إلى أكثم بن صيفى .

٥ - منافرة هاشم بن عبد مناف وأمىة بن عبد شمس إلى الكاهن الخزاعى .

(١) «دائرة المعارف الإسلامية»: بروكلمان، كلمة Arabic .

(٢) «كنز الوصول» للبزدوى المتوفى سنة ٤٨٢هـ (١٨٠٩ - ٩٠م) مع شرحه «كشف

الأسرار» لعبد العزيز البخارى المتوفى سنة ٧٣٠هـ (١٣٢٩ - ٣٠م) .

(٣) «دائرة المعارف الإسلامية»: لفظ حكيم .

ويؤخذ من ذلك أن ما وسم به العرب علماءهم من صفات الحكمة والحكم كانت تعبر عن معانٍ متقاربة من العلم والفقہ بما يفيد صلاحًا للناس في أبدانهم ويحقق معنى العدل والنظام بينهم، ويمنع الخصام.

قال الألوسى في «بلوغ الأرب»: «حكّام العرب في الجاهلية - الحاكم منفذ الحكم كالحكّم محرّك»، جمعه حُكّام، وحكّام العرب علماءؤهم الذين كانوا يحكمون بينهم إذا تشاجروا في الفضل والمجد وعلو الحساب والنسب وغير ذلك من الأمور التي كانت تقع بينهم، وكان لكل قبيلة من قبائلهم حكّم يتحاكمون إليه وهم كثيرون لا يسعهم الحصر^(١).

ولعلنا إذا استعرضنا باختصار تاريخ جماعة من حكماء العرب الذين يقول فيهم أبو الفتح محمد الشهرستاني المتوفى ٥٤٨هـ (١١٥٣م) في «كتاب الملل والنحل»: «ومنهم - أي الفلاسفة - حكماء العرب، وهم شرذمة قليلة لأن أكثرهم حكّمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر، وربما قالوا بالنبوت» استطعنا أن نتبين مجال معارفهم ومذاهب تفكيرهم. وقد ذكر الجاحظ المتوفى ٢٥٥هـ (٨٦٩م) في كتاب «البيان والتبيين» أسماء جماعة من هؤلاء الحكماء فقال: «ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدرة والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء^(٢): لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومُجاشع بن دارم، وسليط بن كعب ابن يربوع، سموه بذلك لسلطة لسانه. وقال جرير: إن سليطًا كاسمه سليط، ولؤي بن غالب، وقس بن ساعدة، وقُصيّ بن كلاب. ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكنم بن صيفي، وربيعة بن حذار، وهريم بن قطبة، وعامر بن الظرب، وليبد بن ربيعة».

ومن هؤلاء الحكماء الحارث بن كلدة الثقفي، وقد ترجم له ابن أبي أصيبعة المصري المتوفى ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»

(١) ج ١ ص ٣٣٨.

(٢) النُّكْر والنُّكْرَة والنُّكْرَاء، والنُّكْر بالضم: الدهاء والفظنة - «قاموس».

وذكره الوزير جمال الدين القفطى المتوفى سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) فى كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء». كان الحارث من الطائف وسافر البلاد وتعلم الطب بفارس وتمرن هناك، وكان يضرب العود، تعلم ذلك بفارس أيضاً. وعاش إلى زمن معاوية. ومن حكمه المأثورة: دافع بالدواء ما وجدت مدفعا، ولا تشربه إلا من ضرورة، فإنه لا يصلح شيئاً إلا أفسد مثله، وروى أنه لما احتضِر اجتمع الناس إليه فقالوا: مرنا بأمر ننتهى إليه بعدك، فقال: لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا فى أوان نضجها، ولا يتعالجن أحدكم ما احتمل بدنه الداء، وعليكم بالنورة^(١) فى كل شهر فإنها مذية للبلغم مهلكة للمرة منبئة للحم. وإذا تَعَدَّى أحدكم فليتم على إثر غدائه، وإذا تعشى فليخطُ أربعين خطوة».

ومن حكماء العرب أكثم بن صيفى بن رباح، وكان حكماً من حكام تميم، فصيحاً عالماً بالأنساب؛ وأدرك أوائل الإسلام، ومن حكمه: مقتل الرجل بين فكيه؛ ويل لعالم أمرٍ من جاهله. وذكر الألوسى من حكم أكثم بن صيفى: إن قول الحق لم يدع لى صديقاً؛ يتشابه الأمر إذا أقبل، وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق؛ لا تغضوا عن اليسير فإنه يجنى الكثير؛ حيلة من لا حيلة له الصبر. وقال الألوسى فى أكثم بن صيفى: وكان من حديثه أنه لما ظهر النبى ﷺ بمكة ودعا إلى الإسلام بعث أكثم ابنه حَيْشَا، فأتاه بخبره. فجمع بنى تميم وقال: يا بنى تميم، لا تحضرونى سفيهاً فإنه من يسمع^(٢) يَحُل، إن السفيه يوهن من فوقه، ويثبت من دونه. لا خير فى من لا عقل له. كبرت سننى ودخلتنى ذلة، فإذا رأيت منى حسناً فاقبلوه، وإن رأيت منى غير ذلك فقومونى أستقم. إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة، وأتانى بخبره، وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد

(١) النورة: القطران؛ وانتار وانتور وتنور: تطفى بالنورة.

(٢) فى كتاب «مجمع الأمثال» للميدانى: «المعنى: من يسمع أخبار الناس ومعابهم يقع فى نفسه عليهم المكروه»؛ ج ٢ ص ١٦٩.

الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران، وقد حلفَ (عرف) ذو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه. إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم؛ فإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه. وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله وسمى ابنه محمداً، فكونوا في أمره أولاً ولا تكونوا آخرًا، اتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين. إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن دينًا كان في أخلاق الناس حسناً. أطيعوني واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً، وأصبحتم أعزَّ حتى في العرب وأكثرهم عدداً وأوسعهم داراً، فإنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذلك، ولا يلزمه ذليل إلا عَزَّ. إن الأول لم يدع للآخر شيئاً. وهذا أمر له ما بعده. ومن سبق إليه غمر المعالي واقتدى به التالى. والعزيمة حزم والاختلاف عجز. فقال مالك بن نُويرة: قد خرف شيخكم. فقال أكثم: ويل للشجى^(١) من الخلى، ولهفى على أمر لم أشهده، ولم يسبقنى. فذهب مثلاً^(٢).

ومنهم عامر بن الظرب العدوانى من حكام قيس، وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهماً، ولا بحكمه حكماً. ومن كلماته:

«من طلب شيئاً وجدته، وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه. رب رارع لنفسه حاصد سواه. رب أكلة تمنع أكالات».

ومنهم عبد المطلب بن هاشم جد النبى ﷺ، وكان من حكام قريش،

(١) ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٩. وقد وردت هذه القصة في كتاب «مجمع الأمثال» للميدانى المتوفى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) فى «مجمع أمثال العرب»: «... امرأة كانت فى زمن لقمان بن عاد، وكان لها زوج يقال له: الشجى، وخليل يقال له الخلى، فنزل لقمان بهم، فرأى هذه المرأة ذات يوم انتبذت من بيوت الحى، فارتاب لقمان بأمرها فتبعها، فرأى رجلاً عرض لها ومضياً جميعاً وقضياً حاجتهما، ثم إن المرأة قالت للرجل: إنى أتماوت فإذا أستودنى فى رجمى فأتنى لىلاً فأخرجنى ثم اذهب إلى مكان لا يعرفنا أهله، فلما سمع لقمان ذلك قال: ويل للشجى من الخلى، فأرسلها مثلاً» ج ١ ص ٢٦٩.

وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها: كالمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة.

بل قد ذكر المؤرخون أسماء حكيما من العرب طبيبات وغير طبيبات: كزينب طيبة بنى أود، كانت عارفة بالأعمال الطيبة، خبيرة بالعلاج ومداواة الآم العين والجراحات، مشهورة بذلك. قال أبو الفرج الأصبهاني فى كتاب «الأغانى»: «أخبرنا محمد بن خلف المرزبان قال: حدثنى حماد بن إسحاق عن أبيه عن كنانة عن أبيه عن جده قال: أتيت امرأة من بنى أود لتكحلنى من رمد كان أصابنى فكحلتنى، ثم قالت: اضطجع قليلا حتى يدور الدواء فى عينيك. فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر:

أمخترمى ريبُ المنون ولم أزرُ طيبَ بنى أودِ على النأى زينا

فضحكت ثم قالت: أتدرى فىمن قيل هذا الشعر؟ قلت: لا، قالت: فىّ والله قيل هذا، وأنا ريب التى عنها، وأنا طيبة بنى أود. أتدرى من الشعراء؟ قلت: لا. قالت: عمك أبو سماك الأسدى».

ومن حكيما العرب اللواتى اشتهرن بإصابة الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأى خُصيلة بنت عامر بن الظرب العدوانى. ولعلها هى التى كان أبوها عامر يقول لها: مَسَى سَخِيلٌ بعدها أو صَبَّحى، بناء على أنها كانت تسمى سَخِيلًا أيضًا، قال الميدانى عند شرحه لهذا المثل:

«سَخِيلٌ: جارئة كانت لعامر بن الظرب العدوانى، وكان عامر حَكَمَ العرب، وكانت سخيل ترعى عليه غنمه، فكان عامر يعاتبها فى رَعِيَتِها إذا سرحت قال: أصبحت يا سخيل؛ وإذا راحت قال: أمسيت يا سخيل. وكان عامر عَى فى فتوى قوم اختلفوا إليه فى خنثى يحكم فيه، وسهر فى جوابهم ليالى. فقالت الجارية: أتبعه المبال فبأيئهما بال فهو هو، ففُرجَ عنه وحكم به، وقال: مَسَى سَخِيلٌ بعدها أو صَبَّحى، أى بعد جواب هذه المسألة لا سبيل لأحد عليك بعدما أخرجتنى من هذه الورطة. يضرب لمن يباشر أمراً لا اعتراض لأحد عليه فيه».

وذكر الألوسى فى «بلوغ الأرب» من حكام العرب غيرَ من ذكرنا: حاجب ابن زرارة من حكام تميم، وله معرفة تامة بأخبار العرب وأحوالها وأنسابها، وكان من مشاهير فصحاء زمانه؛ والأقرع بن حابس من حكام تميم، وكان مرجعهم فى واقعاتهم ومنافراتهم، كان حكماً فى الجاهلية وأدرك الإسلام وأسلم؛ وربيعة بن مُخَاشِن وضمرة ابن ضمرة وكلاهما من تميم؛ وغيلان بن سلمة الثقفى من حكام قيس، وقد أدرك الإسلام؛ وهاشم بن عبد مناف، وتنافرت قريش وخزاعة إليه فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة؛ وأبا طالب عم النبى وناصره؛ والعاص بن وائل والد عمرو بن العاص، وكان من حكام قريش وأدرك الإسلام ولم يسلم؛ والعلاء بن حارثة القرشى؛ وربيعة بن حذار الأسدى، ويعمر بن عوف الشدَّاح الكنانى وكان من حكام كنانة؛ وصفوان بن أمية؛ وسلمى بن نوفل وكلاهما من حكام كنانة؛ ومالك بين جبير العاصرى، كان من حكام العرب وحكمائهم. ومن كلامه الذى ضرب به المثل: على الخبير سقطت؛ وعمرو بن حممة الدوسى، واختلفوا فى أنه أدرك الإسلام؛ والحارث ابن عبَّاد الربعى من حكام ربيعة وفرسانها؛ والقلمَّس الكنانى.

وذكر الألوسى أنه كانت فى نساء العرب جملة اشتهرن بإصابة الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأى فى الحكومة؛ منهن: هند بنت الحُسَّ الإيادية، وجمعة بنت حابس الإيادى، وصُحْر بنت لقمان أو أخته، وحذَّام بنت الريَّان، وهى القائلة: لو تُرِكَ القَطَا لَيْلاً لنام^(١).

ولسنا نقطع بأن ما روى من هذه الأخبار صحيح ثابت، ولكننا نرى أنه فى جملة يكفى فى الدلالة على وجهة التفكير الذى كان يسمى حكمة عند العرب وحكماً ويسمى أهله حكماء وحكَّاماً. وهو تفكير عملى متصل بالفصل فيما يقع بينهم من نزاع، والفتوى فيما يحدث لهم من أفضية، والطب لما يعرض لهم من مرض.

وبالجملة فقد كان العرب حين نزول القرآن فى منازعة وجدل فى العقائد

الدينية، وكان البحث فى إرسال الرسل والحياة الآخرة وبعث الأجساد بعد الموت، موضع الأخذ والرد على الخصوص بين النحل المتباينة.

قال الألوسى فى «بلوغ الأرب»: (وشبهات العرب كانت مقصورة على إنكار البعث ووجد إرسال الرسل. فعلى الأول قالوا: ﴿أَلَيْدًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَتِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلَادُونَ﴾^(١)، إلى غير ذلك من الآيات، وذكروا ذلك فى أشعارهم، قال قائلهم:

حياةٌ ثم موتٌ ثم نَشْرٌ حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عمرو

وقال شداد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك يرثى كُفَّار قريش يوم بدر لما قتلوا وألقاهم النبى ﷺ فى القليب، وهى البئر التى لم تطو:

يحدثنا الرسول بأنَّ سنَّحياً فكيف حياةٌ أصداء وهام!

وأراد الشاعر إنكار البعث بهذا الكلام كأنه يقول: إذا صار الإنسان كهذا الطائر، كيف يصير مرة أخرى إنساناً؟ وأما على الثانى فكان إنكارهم لبعث الرسل فى الصورة البشرية أشد وإصرارهم على ذلك أبلغ، وأخبر عنهم التنزيل بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات^(٣).

وكان يُعَدُّ العرب للجدل الدينى ويحفزهم إليه، إما الدفاع عن أديانهم الموروثة ضد الأديان الدخيلة عليهم، وإما المهاجمة لهذه الأديان جميعاً من أجل ما يلتمسون من الدين الحنيف، دين إبراهيم، وهو دين قومى كانت تشرَّب إليه أمة تدب فيها مبادئ الحياة القومية.

وكان عندهم نوع من النظر العقلى هو أهدأ من هذا وأقل عنفاً، هو علم الطبقة المميزة، وهو علم الحكمة النافعة فى الحياة.

العرب بعد ظهور الإسلام: دين وشريعة:

٥- جاء الإسلام بقرار أن الدين الحق واحد، هو وحى الله إلى جميع

(١) الآيتان: ٤٧، ٤٨ من سورة الواقعة.

(٢) الآية: ٩٤ من سورة الإسراء.

(٣) ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٥.

أنيائه، وهو عبارة عن الأصول التي لا تتبدل بالنسخ، ولا يختلف فيها الرسل، وهي هدى أبداً.

أما الشرائع العملية، فهي متفاوتة بين الأنبياء، وهي هدى ما لم تنسخ، فإذا نسخت لم تبق هدى، وفي القرآن الكريم: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرَةٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ﴾^(١) وفي القرآن أيضاً: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾^(٢).

قال مجاهد في معنى هذه الآية: أوصيناك يا محمد وإياهم ديناً واحداً.

وروى الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ (٩٢٢ - ٢٣م) عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا...﴾^(٣): «يقول: سبيلاً وسنة؛ والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يُحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء بلاءً ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يُقبل غيره التوحيد والإخلاص لله، الذي جاءت به الرسل»^(٤).

وروى الطبري عن قتادة أيضاً: «الدين واحد، والشريعة مختلفة».

وقال الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٣ - ٤٤م) في تفسيره «الكشاف»: «قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ...﴾^(٥).

والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة وهي هدى ما لم تنسخ، فإذا نسخت لم تبق هدى بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً».

والإسلام يجمع بين الدين والشريعة؛ أما الدين فقد استوفاه الله كله في كتابه الكريم، ولم يكِل الناس إلى عقولهم في شيء منه؛ وأما الشريعة فقد

(٢) الآية: ١٣ من سورة الشورى.

(٤) عند تفسير هذه الآية في «تفسيره».

(١) الآية: ٤٣ من سورة فصلت.

(٣) الآية: ٤٨ من سورة المائدة.

(٥) الآية: ٢٩ من سورة الأنعام.

استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادى تفصيلها. جاء فى القرآن المجيد: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١). وكان نزول هذه الآية فى يوم عرفة عام حج النبى ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، ولم يعش النبى بعد نزولها إلا إحدى وثمانين ليلة، ولم يمض رسول الله حتى كمل الدين. روى الطبرى عن ابن عباس فى تفسيره هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، قال: «أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً؛ وقد أتمه عز وجل فلا ينقصه أبداً؛ وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً».

قال الشاطبى المتوفى سنة ٥٩٠هـ (١١٩٣ - ٩٤م) فى كتاب «الاعتصام»: «لم يبق للدين قاعدة يحتاج إليها فى الضروريات والحاجيات أو التكميلات إلا وقد بينت غاية البيان. نعم، يبقى تنزيل الجزئيات على تلك الكليات موكولاً إلى نظر المجتهد؛ فإن قاعدة الاجتهاد أيضاً ثابتة فى الكتاب والسنة فلا بد من إعمالها ولا يسع تركها، وإذا ثبتت فى الشريعة أشعرت بأن ثمَّ مجالاً للاجتهاد، ولا يوجد ذلك إلا فيما لا نص فيه. ولو كان المراد بالآية الكمال بحسب تحصيل الجزئيات بالفعل، فالجزئيات لا نهاية لها فلا تنحصر بمرسوم. وقد نص العلماء على هذا المعنى. فإنما المراد الكمال بحسب ما يحتاج إليه من القواعد الكلية التى يجرى عليها ما لا نهاية له من النوازل» (٢).

وفى «الرسالة» للشافعى: «قال الشافعى: فجَماع ما أبان الله لخلقه فى كتابه مما تعبدهم به لما مضى من حكمه جل ثناؤه من وجوه:

١- فمنها ما أبانه لخلقه نصاً مثل جُمَل فرائضه فى أن عليهم صلاة وركاة وحجاً وصوماً، وأنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونص الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وبين لهم كيف فرض الوضوء مع غير ذلك مما بين نصاً.

٢- ومنها ما أحكم فرضه بكتابه. وبين كيف هو على لسان نبيه ﷺ، مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتهما، وغير ذلك من فرائضه التى أنزل فى كتابه.

٣- ومنها ما سن رسول الله ﷺ مما ليس لله عز وجل فيه نص حكم، وقد فرض الله عز وجل في كتابه طاعة رسوله والانتهاه إلى حكمه، فمن قبل عن رسول الله ﷺ بفرض الله جل ثناؤه قبل.

٤- ومنها ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم^(١).

الإسلام والجدل في الدين:

وقد بعث محمد بدين الإسلام داعياً إلى الوحدة في الدين وإلى التآلف، ناهياً عن الفرقة، كما في آيات كثيرة من القرآن منها: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾^(٢)؛ ومنها: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾^(٣)؛ وقال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(٤)؛ وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٥)؛ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٦). وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٧).

وكان على القرآن أن يجادل مخالفيه من أرباب الأديان والملل في العرب رداً للشبهات التي كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد، على أنه كان لا يمدُّ في جبل الجدل حرصاً على الألفة، وكثيراً ما تختم آيات الجدل بمثل قوله:

(١) ص ٥٥، طبع الحسيني بك.

(٢) الآية: ٣ من سورة آل عمران.

(٣) الآية: ١٣ من سورة الشورى.

(٤) الآية: ١٥٩ من سورة الأنعام.

(٥) الآية: ١٠٥ من سورة آل عمران.

(٦) الآية: ٤٦ من سورة الأنعام.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١)؛ وقوله: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٢)،
وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٣).

هذا الجدل^(٤) في العقائد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدارها من غير أن يشجع المسلمين على المضي فيه، بل هو قد نفرهم منه في قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٥) جاء في كتاب «مختصر جامع بيان العلم» لابن عبد البر: «وعن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي في قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ قال: الخصومات بالجدال في الدين» وهذا يتفق مع قول كثير من المفسرين كالزمخشري والبيضاوي.

ودعا القرآن إلى الأخذ في هذا الجدل برفق عند الحاجة إلى الجدل، في مثل قوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٦)؛ وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^(٧)؛ وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٨)؛ وقوله: ﴿فَإِنْ حَاجَبَكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

(١) الآية: ٣ من سورة الزمر.

(٢) الآية: ١٦٤ من سورة الأنعام.

(٤) الجدل: القوة والخصومة. وفي اصطلاح المنطقيين: قياس مؤلف من قضايا مشهورة أو مسلمة لإنتاج قول آخر، والجدلي قد يكون سائلا وغاية سعيه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان؛ وقد يكون مجيبا وغرضه ألا يصير مطرح الإلزام. «دستور العلماء» ج ١ ص ٣٨٥.

(٥) الآية: ١٤ من سورة المائدة.

(٦) الآية: ١٤ من سورة النحل: ١٢٥.

(٧) الآية: ٥٣ من سورة الإسراء.

(٨) الآية: ٤٦ من سورة العنكبوت.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١﴾؛ وقوله: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ ﴿٢﴾؛ وقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٣﴾.

الإسلام والحكمة:

وإذا كان القرآن قد نَفَرَ المسلمين من الجدل في أمور العقائد، فإن القرآن قد ذكر الحكمة التي كانت معروفة عند العرب وكانت شرقاً لاهلها وجاهاً، وأثنى عليها وشجع على حياتها ونموها. والقرآن إنما استعمل الحكمة والحُكْم وما إليهما في معانيها اللغوية، أو في معان ذات نسب واتصال بها شديد.

ويُفسر مالك الحكمة في كثير من آيات القرآن بالفقه في دين الله والعمل به، كما رواه ابن عبد البر في كتاب: «جامع بيان العلم وفضله». ويقول الشافعي في كتاب «الرسالة» في أصول الفقه، بعد أن أورد آيات فيها ذكر الكتاب والحكمة ما نصه:

«قال الشافعي: فَذَكَرَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ الْكِتَابَ وَهُوَ الْقُرْآنُ؛ وَذَكَرَ الْحِكْمَةَ فَسَمِعْتُ مَنْ أَرْضَىٰ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْقُرْآنِ يَقُولُ: «الْحِكْمَةُ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قال الشافعي: وهذا يشبه ما قاله، والله أعلم» وقال الشافعي في «الرسالة» أيضاً: «وفيما كتبنا في كتابنا هذا من ذكر ما من الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة دليل على أن الحكمة سنة رسول الله» (٤).

ويقول الطبري في تفسير آية: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿٥﴾: «ويعنى بالحكمة ما أوحى إلى رسول الله ﷺ من أحكام دين الله ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة».

(٢) الآية: ١٣٩ من سورة البقرة.

(٤) ص ٧ طبع الحسيني بك.

(١) الآية: ٢٠ من سورة آل عمران..

(٣) الآية: ١٣٦ من سورة البقرة.

(٥) الآية: ٣٤ من سورة الأحزاب.

وفى كتاب «أصول الفقه» لفخر الإسلام البزدوى عند الكلام على «علم الفروع» وهو الفقه: «وقد دل على هذا المعنى (أى أن العمل بالعلم معتبر فى معنى الفقه) أن الله تعالى سَمى علم الشريعة «حكمة» فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١). وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما الحكمة فى القرآن بعلم الحلال والحرام، وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٢) أى: بالفقه والشريعة، والحكمة فى اللغة هى العلم والعمل، فكذلك موضع اشتقاق هذا الاسم، وهو الفقه، دليل عليه: وهو العلم بصفة الإتقان مع اتصال العمل به؛ والموعظة الحسنة هى التى لا يخفى على من تعظه أنك تناصحه وتقصد نفعه فيها، ووصف الموعظة بالحسنة دون الحكمة، لأن الموعظة ربما آلت إلى القبح، بأن وقعت فى غير موضعها ووقتها، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان النبى صلوات الله عليه يتخولنا^(٣) بالموعظة مخافة السامة» فاما الحكمة فحسنة أينما وجدت، إذ هى عبارة عن القول الصواب والفعل الصواب^(٤).

وفى كتاب «المبسوط» لشمس الدين السرخسى: «وأما علم الفقه والشرائع فهو الخير الكثير. قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: الحكمة معرفة الأحكام من الحلال والحرام^(٥).

وفى «شرح تنوير الأبصار فى فقه الإمام الأعظم»: «وقد مدحه الله تعالى بتسميته خيراً بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وقد فسَّر الحكمة زمرة أرباب التفسير بعلم الفروع الذى هو علم الفقه^(٦).
وجملة القول أن الحكمة فى آية: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ

(١) الآية: ٢٦٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ١٢٥ من سورة النحل.

(٣) يتخولنا: قال ابن الأثير: قال أبو عمرو: الصواب يتحولنا بالحاء غير معجمة، أى يطلب الحال التى ينشطون فيها للموعظة فيعظهم فيها ولا يكثر عليهم فيملوا (لسان مادة حول وخول) والسياق يؤيده.

(٤) ج ١ ص ١٣ طبع دار السعادة سنة ١٣٠٨. (٥) ج ١ ص ٢.

(٦) ج ١ ص ٢٨ - ٢٩.

فَقَدَّ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَبَابِ ﴿﴾ هي الحكمة بمعناها اللغوية، أي العلم النافع والفقه في شئون الحياة بتعرف الحق فيها وإمضائه.

وفي تفسير الطبري لهذه الآية: «يعنى بذلك جل ثناؤه: يؤتى الله الإصابة في القول والفعل مَنْ يشاء من عباده، ومن يُؤْتِ الإصابة منهم في ذلك فقد أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا، وقد بينَّا فيما مضى معنى الحكمة وأنها مأخوذة من الحُكْم وفصل القضاء، وأنها الإصابة بما دل على صحته؛ فأغنى ذلك عن تكريره في هذا الموضع».

وفي كتاب «العواصم من القواصم» لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي: «الحكمة: وليس للحكمة معنى إلا العلم، ولا للعلم معنى إلا العقل؛ إلا أن في الحكمة إشارةً إلى ثمرة العلم وفائدته، ولفظ العلم مجرد عن دلالة على غير ذاته؛ وثمره العلم العمل بموجبه والتصرف بحكمه، والجرى على مقتضاه في جميع الأقوال والأفعال»^(١).

والنظر فيما ورد في القرآن والسنة من استعمال كلمة «الحكمة» يدل على أن المراد بها العلم الذي يتصل بالعمل، وفي حديث الصحيحين: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق؛ ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

كان لهذه المعاني الدينية التي قررها الإسلام منذ نشأته أثرها العظيم في توجيه النظر العقلي عند المسلمين في عهدهم الأول، فكرهوا البحث والجدل في أمور الدين.

قال ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠ - ٧١م) في كتاب «جامع بيان العلم وفضله»: «ونهى السلف - رحمهم الله - عن الجدل في الله جل ثناؤه في صفاته وأسمائه، وأما الفقه فأجمعوا على الجدل فيه والتناظر، لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول للحاجة إلى ذلك؛ وليس الاعتقادات كذلك؛ لأن الله، جل وعز، لا يوصف عند الجماعة - أهل السنة - إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، ﷺ، أو أجمعت الأمة عليه. وليس

(١) ج ١ ص ٢٠٥ - ٦٠٥. طبع المطبعة الجزائرية الإسلامية سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م).

كاملته شيء فيدرك بقياس أو إنعام نظر. وقد نهينا عن التفكير في الله، وأمرنا بالتفكير في خلقه الدالّ عليه. وعن مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: «كان مالك بن أنس يقول: الكلام في الدين أكرهه؛ ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم، والقدر وما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل»^(١)، وقال أيضاً في الكتاب نفسه: «وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب كلام أبدأ، ولا نكاد نرى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دَعَلٌ. وقال مالك: أرايت إن جاءه مَنْ هو أجدل منه، أيدعُ دينه كل يوم لدين جديد؟» وقال ابن عبد البر أيضاً: «قال أبو عمر: تناظر القوم وتجادلوا في الفقه، ونهوا عن الجدل في الاعتقاد، لأنه يؤدي إلى الانسلاخ من الدين؛ إلا ترى مناظرة بشر في قوله عز وجل: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾^(٢) حين قال: هو بذاته في كل مكان. فقال له خصمه: فهو في قلنسوتك وفي حُشْكٍ وفي جوف حمار؛ تعالی الله عما يقولون، حكى ذلك وكيع، رحمه الله، وأنا والله أكره أن أحكى كلامهم قبحهم الله، فمن هذا وشبهه نهى العلماء، وأما الفقه فلا يوصل إليه، ولا يُنال أبدأ دون نظر وتفهم له»^(٣).

وفي كتاب «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦هـ (٨٨٩ - ٨٩٠م) بصدد الطعن على المختلفين في أصول الدين: «قال أبو محمد: ولو كان اختلافهم في الفروع والسنن لا تُسَع لهم العُدْر عندنا، وإلا كان لا عذر لهم مع ما يدعونه لأنفسهم، كما اتسع لأهل الفقه، ووقعت لهم الأسوة بهم. ولكن اختلافهم في التوحيد وفي صفات الله تعالى، وفي قدرته، وفي نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، وعذاب البرزخ، وفي اللوح، وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله تعالى»^(٤).

ويقول ابن قتيبة نفسه في كتاب «الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبّهة»:

«وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون في معادلة الصبر بالشكر، وفي

(١) ص ١٥٣. (٢) ص ١٥٦ - ٥٨. (٣) الآية: ٧ من سورة المجادلة.

(٤) «تأويل مختلف الحديث»، مطبعة كردستان العلمية، القاهرة سنة ١٣٢٦ ص ١٧.

تفضيل أحدهما على الآخر، وفي الوسوس والخطرات، ومجاهدة النفس وقمع الهوى؛ فقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتوَلد والطفرة والجزء والعرض والجوهر، فهم دائبون يخبطون في العشوات، وقد تشعبت بهم الطرق، وقادهم الهوى بزمام الردى»^(١).

وجاء في كتاب «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: «وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً. ولكن بحمد الله لم يتنازعو في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم، لم يسوموها تأويلاً، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يدوا الشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورهم وأعجازها، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً، وأجروها على سنن واحد، ولم يعملوا كما فعل أهل الأهواء والبدع، حيث جعلوها عِضِينَ وأقروا ببعضها، وأنكروا بعضها، من غير فرقان مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه»^(٢).

فالمسلمون في الصدر الأول كانوا يرون أن لا سبيل لتقرير العقائد إلا الوحي؛ أما العقل فمعزول عن الشرع وأنظاره كما يقول ابن خلدون في المقدمة، وفي كتاب «النبوات» لابن تيمية:

«فصل - قد ذكرنا في غير موضع أن أصول الدين الذي بعث الله به رسوله محمداً، ﷺ، قد بينها الله في القرآن أحسن بيان»^(٣).

وكانوا يرون أن التناظر والتجادل في الاعتقاد يؤدي إلى الانسلاخ من الدين، من أجل ذلك كان المسلمون عند وفاة النبي، ﷺ، على عقيدة

(١) ص ٩ من طبع مطبعة السعادة، القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

(٢) ج ١ ص ٥٥.

(٣) ص ١٤٥.

واحدة إلا من كان يبطن النفاق. ولم يظهر البحث والجدل في مسائل العقائد إلا في أيام الصحابة، حين ظهرت بدع وشبه اضطروا المسلمون إلى مدافعتها.

وفي كتاب «التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين» لأبي المظفر طاهر بن محمد الاسفراييني المتوفى سنة ٤٧١هـ (١٠٧٨م): «وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة كمعبد الجهني، وغيلان الدمشقي، وجعد بن درهم، وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة»^(١).

ومن ثم تفرقت الفرق، ونشأ علم الكلام حجاجاً للمبتدعة الحائدين عن طريق السلف والمخالقين للدين، ونشأ على أنه ضرورة تقدر بقدرها.

أما النظر العقلي في المسائل الشرعية العملية فقد نشأ في الإسلام مؤيداً من الدين، وقد ورد في الكتاب والسنة الثناء على الحكمة والحكم والتنويه بفضلها، فمهد ذلك لانتعاش النظر العقلي في الشئون العملية، وهو نوع من التفكير كانت العرب مستعدة لنموه بينها على ما أشرنا إليه آنفاً، ووجدت الحاجة إلى هذا النظر في استنباط أحكام الوقائع المتجددة التي لم يكن من الممكن أن تحيط بها النصوص الشرعية. قال ابن عبد البر في كتاب «جامع بيان العلم وفضله»: «وقال المزني: الفقهاء من عصر رسول الله ﷺ، إلى يومنا هذا وهلم جرا، استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم».

وسن الرسول لولاته في الأمصار أن يجتهدوا رأيهم حين لا يجدون نصاً، وجاء القرآن نفسه بأحكام كلّف بها المسلمون على أن يكون سيّلتهم في طاعتها الاسترشاد بالعقل، كما في مسألة التوجه إلى القبلة للبعيد عن الكعبة، وقد فصل الشافعي، المتوفى سنة ٢٠٤هـ (٨١٩ - ٨٢٠م) ذلك في «رسالته».

فحدث الاجتهاد في التشريع الإسلامي منذ عهد الإسلام الأول في كنف القرآن بترخيص من الرسول ﷺ.

وقد روى ابن عبد البر في كتاب «جامع بيان العلم وفضله»: «عن معاذ: أن

(١) من نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم (٤٨) توحيد.

رسول الله ﷺ، لما بعثه إلى اليمن قال له: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أفضى بما في كتاب الله، قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأى لا أكره. قال: فضرب بيده في صدرى، وقال: الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضاه رسول الله» وروى ابن عبد البر أيضاً: «عن ابن عمر: قال رسول الله ﷺ، يوم الأحزاب: «لا يصل أحد العصر إلا فى بنى قريظة» فأدركهم وقت العصر فى الطريق، فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلى ولم يرد منا ذلك؛ فذكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يعنف واحدة من الطائفتين، قال أبو عمر: هذه سبيل الاجتهاد على الأصول عند جماعة الفقهاء»^(١).

الاجتهاد بالرأى هو بداية النظر العقلى:

هذا الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية هو أول ما نبت من النظر العقلى عند المسلمين، وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن وبسبب من الدين، ونشأت منه المذاهب الفقهية وأينع فى جنباته علم فلسفى هو علم «أصول الفقه» ونبت فى تربته التصوف أيضاً كما سنبينه، وذلك من قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها فى توجيه النظر العقلى عند المسلمين إلى البحث فيما وراء الطبيعة والإلهيات على أنحاء خاصة..

والباحث فى تاريخ الفلسفة الإسلامية يجب عليه أولاً أن يدرس الاجتهاد بالرأى منذ نشأته الساذجة إلى أن صار نَسَقًا من أساليب البحث العلمى، له أصوله وقواعده. يجب البدء بهذا البحث لأنه بداية التفكير الفلسفى عند المسلمين، والترتيب الطبيعى يقضى بتقديم السابق على اللاحق؛ ولأن هذه الناحية أقل نواحي التفكير الإسلامى تأثراً بالعناصر الأجنبية، فهى تمثل لنا هذا التفكير مخلصاً بسيطاً يكاد يكون مسيراً فى طريق النمو بقوته الذاتية وحدها، فيسهل بعد ذلك أن نتابع أطواره فى ثنايا التاريخ، وأن نتقصى فعله وانفعاله فيما اتصل به من أفكار الأمم.